القصص

قصة مصرية

تقاليد . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يكن حامد قد أتم دراسته العالية حين بدأت تقوى صلته بصديقه حسين افندى ، ولم يكن الحديث بينهما كلما تقابلا يتجاوز السؤال عن الصحة والانجال ، والذكريات القريبة عن جهادهما فى صفوف الشباب الوطنيين ، ولا يذكر حامد انه زار صديقه حسينا فى منزله غير بضع مرات كان فى معظمها مريضا ، وما أكثر مايشكو المرض ! ومرة دعاه حسين افندى الى زيارة منزله فلبى ، وكانت هذه أولى زيارات متتابعة قوت بينهما رابطة الاخاء والود ، وزادت إخلاصهما تمكينا وقوة .

كانت منيرة بنت حسين افندى فتاة فارعة الجسم ، معتدلة القامة ، خمرية اللون ، فاتنة النظرة ، عذبة نغم الحديث ، تبدو فى أنوثة فاتنة نضجت فى شعاع ثمانية عشر ربيعا . ورآها حامد فاعجبه أن يتحدث اليها ، وأن تتحدث اليه ، وأن يشعر فى أثناء ذلك أنه موضع اهتمامها حين تسأله عن حياته فى القاهرة وحيدا أيام الدراسة ، وابتدأ أهل البيت يرتاحون لزيارته فى ثقة واطمئنان ، وابتدأ هو يحس الشوق كلما أخلف موعد هذه الزيارة . وصار من المألوف أن يزورهم كل يوم ، وأن يسألوا عنه كلما غاب . وانتهى الصيف وعاد حامد الى القاهرة يستقبل العام الثانى من دراسته فى كلية العلوم ، ولكنه لم يشعر بالاستقرار وهدوء البال اللذين كان يشعر بهما فى العام الماضى ، وانما كان كثير الحنين الى البلد حيث قضى أيام الصيف . أهو شعور السأم من الوحدة فى بلد تذوق كل ما حل من لذاته ، أو ملل الدارس طال به انتظار الثمرة ، والحنين الى أهله والصفوة من أصحابه فى البلد الذى نشأ فيه ؟

لم يستطع حامد أن يجيب على هذا السؤال الا بعد أيام حين وصلته رسالة من صديقه حسين ، أودعها شوقه وتحيته ، يخبره أن منيرة مريضة منذ أيام . ماكان أسرع صاحبنا حينئذ الى كتابة جواب هذه الرسالة ، على كسله وتوانيه فى كتابة الرسائل ! لم يذكر شيئا من رسالة صديقه الطويلة ذات الصفحات الاربع غير مرض منيرة ، ولم يكتب شيئا فى جوابه غير السؤال عن منيرة والاهتمام بها ، والدعاء لها ! وفى صندوق البريد ألقى الجواب ، ثم خرج منفردا فى نزهة وراح يفكر . . . وبدا له أنه كان متسرعا كل التسرع ، عجلا كل العجلة ، فيما ضمن جوابه من عبارات . أى صلة بينه وبين حسين افندى تسمح له أن يهتم كل الاهتمام بابنته ، وأن يصرح بالشوق اليها ، والالم الموجع لمرضها فى كتاب لابيها وليس من التقاليد أن يتكلم الشبان عن بنات أصدقائهم بهذه اللهجة الناعمة المفتونة ؟ ولكن حامداً نفسه لم يكن يعرف لماذا كتب ذلك ، ولا كيف اندفع اليه ونسى التقاليد والادب اللائق ، أكان يحبها وهذا وحى عاطفته ودافع وجدانه ؟ ربما !

بلغته رسالة أخرى من صديقه حسين افندى ، فلم يكن بها ذكر لمنيرة أو نبأ عنها . أكان تجاهلا مقصودا ؟ وهل كان ذلك من أثر رسالته ؟ ترى ماذا كتب فيها ؟ لقد نسى كل ماجرى به قلمه ، ولم يذكر الا انها كانت رسالة تجاوز بها التقاليد التى يدين بها حسين افندى أكثر مما يحرص حامد على نبذها . . .

وكأنما انقطعت عنه أخبار صاحبته منذ أمد طويل لا منذ أيام ، وابتدأت تغزو فكره مرات فى اليوم الواحد ، او أخذ يذكر حديثها ويستعيد الكثير مما ينكره ويردده بلسانه فى لحن عذب الايقاع ، وطارت حولها أمانيه ، وعقد بها مستقبله . لقد كانت وهى بعيدة أفتن منها بين عينيه ! ولم يشغله فيما تلا ذلك من أيام الا أن يحصى كم بقى من الزمن ليعود الى هناك . . .

وكثرت زياراته للبلد : زارها مرتين فى الشهر الأول ، وثلاثاً فى الشهر الثانى وكان فى كل زيارة من هذه الزيارات يجد نفسه مسوقا إلى ناحية بيت حسين افندى ، فيقضى هناك بعض الوقت قبل أن يزور أمه واخوته . ورأى فى ترحيب صاحبته به ، وسرورها بمقدمه معنى لم تنكره عيناها ، واعترفت به ضغطة يدها عند اللقاء وعند الوداع . لم تعد به حاجة لأن يسال نفسه عن سر ذلك ، فقد أيقن أنه وأنها . . .

وأضمر أمراً وأسره إلى صديق ، فقد كان يفكر فى أن يختارها لنفسه زوجة ، ولكن أتراه يستطيع أن يقدم على ذلك وهو ما يزال طالباً بينه وبين رجولة الأزواج أعوام ثلاثة ؟ وماذا عليه لو خطبها إلى أبيها وطلب إليه أن ينتظر حتى يتخرج ، أتراه يقبل ذلك ويرضاه لها ؟ وكيف يبدؤه الحديث ، بل كيف يتحدث الناس فى هذا الشأن ؟ لقد مات أبوه منذ سنوات ، والأب هو الذى يستطيع أن يتحدث باسم ولده فى مثل هذه الشئون . . . ولم يطل به التفكير فى ذلك ، فقد ذاع ماحسبه سراً بينه وبين صديقه حتى وصل إلى مسمع الوالد !

(٢)

وزار البلد بعد ذلك ولكنه لم يسعد بلقاء حبيبته ، فقد حجبوها عنه ، وأقاموا بينه وبينها التقاليد ، أى أغلقوا دونهما الأبواب وأرخوا الستور . قد تكون أسعد منه الآن ، فهى تستطيع أن تزيح السجف لتراه كلما زارهم ، ولكنه لا يراها وليس إلى لقائها من سبيل ! وابتدأ الدور الثانى من أعراض الحب ، وعصف الشوق بقلبه ، وعبث بلبه ، وسيطر على ذات نفسه . وانصرم العام لا يذكر أنه رآها فى خلاله أو استمتع بها غير نظرات كحسو الطير ، ما كان أفرحه باجازة الصيف ! لقد كان يظن أنه يستطيع فى إبانه أن يصل ما انقطع من لذاته باللقاء — عهده الأول — ولكن ما كان أبعد أمانيه . . . ! وضاقت نفسه مما نجد ، وأحس الشوق يفرى كبده ، والحسرة تشوى قلبه . وانقضى الصيف ، وعاد إلى القاهرة لم يتزود بتسليمة مشتاق أو نظرة وداع ، وحسب أنه هناك يستطيع أن ينشد السلوة ويلتمس العزاء فى جوها الصاخب ، فقضى أيامه الاولى بها على شر مايقضيها العاشق . ولكن شأناً خاصاً دعا صاحبته أن تزور القاهرة وقتئذ ، وتنزل فى ضيافة بعض ذوى قرباها هناك ، فتجدد الامل عنده ، وأحس كأنما نسيم القاهرة أصبح نديا عبقاً بعد إذ كان ناراً حامية يصلاها بعيداً عن الاهل والأحباب . . . وكان من حظه أن لم تجىء معها التقاليد فتلاقيا غير مرة ، وخرجا للنزهة مرات ، فلم يتركا بين منازه القاهرة موضعاً لم يشهداه على حبهما ، ثم عادت إلى البلد وخلفت له الشوق والحنين ، وكلما لج به هواه وألح عليه الشوق أنس فى وحدته بذكرى تلك الأيام القليلة ، أو خرج يلتمس العزاء هناك . . . حيث كانا يجلسان ، لعله يسمع فى همس النسيم صدى ما كانا يتناجيان ، أو يستوحى عيون الزهر سر ما استودعاه لديها من عهود الماضى ، ويتسمع فى خرير الماء رسالة ضلت الطريق إليه ، أو يتفيأ فى ظلال الخمائل مجلساً طالما بسط لهما ذراعيه وضم . هيهات ! لقد صمت النسيم إلا حنين المهجور ، وجف الزهر إلا عبرة الآسى ، وخرس الماء إلا بكاء الواجد ، وسكن الشجر إلا هزة الشيخ حطمته السنون . ليته لم يلقها بعد إذ أيأسه منها ذلك البعد الطويل ، لقد كان من يأسه فى راحة ! . . . كيف تمر الايام على الغريب أوحشت نفسه وانقطع مابينه وبين الناس ؟ إنه ليخيل إليه أن الزمن عبء ثقيل على كتفيه يجاهد للخلاص منه ولو بالخلاص من الحياة ، وكلما عاد بنظره إلى الخلف عجب كيف استطاع أن يقطع كل ذلك الماضى وكيف انصرمت أيامه والحمل لم يخف عن كتفيه ، ولم يزل بينه وبين الخلاص أمد لايمتد النظر الى نهايته ؟

الآن لم يبق بينه وبين الحصول على اجازة كلية العلوم غير عام واحد يستطيع بعده ان يتقدم فى ثقة بنفسه واطمئنان إلى مستقبله ليخطبها إلى أبيها ، ولكنه حسب إن هو تعجل الحديث فى هذا الشأن تفتحت أمامه الابواب ، وانزاحت الحجب ، وانكشفت الستور ، واستطاع أن يظفر بلقاء (خطيبته) على عين أهلها وأن يتحدث اليها بينهم . واغتنم فرصة سانحة ، وما هى إلا أن استجمع شجاعته ، فانطلق يحدث أباها ، وأبوها ينصت اليه فى هدوء . لاشك أنه كان ينتظر أن يسمع هذا الحديث منذ زمن طويل ، وأنه هيأ فى خياله صورة هذا المجلس من قبل ، فلم يلبثا أن تصافحا فى حرارة وعزم ، وقلباهما مفعمان بالسرور ، وعلى أساريرهما بشر ناطق .

منذ ذلك اليوم أصبح حامد خطيب منيرة ، وإن لم تتناقل الافواه هذا الخبر لانهما حاولا أن يبقيا سرا بينهما حتى يحين يوم إعلانه ، وأحس حامد بعض إحساس الملكية لشىء فى هذا البيت الذى كان الناس يرونه كثير التردد عليه ، ويدفعهم الفضول الى البحث عن دواعيه . ولكن لم يتغير شىء مما ألفه حامد ونقم عليه وحاول الخلاص منه من قبل ، فلا هو استطاع أن يرى خطيبته أو يتحدث اليها ، أو يسأل عنها سؤال الشخص عمن يهمه ، لقد زاد الحجاب بينهما ، وزاد التكلف ، وبدأ حديث حسين افندى عن بعض شؤونه الخاصة فيه بعض الحذر وبعض التأنق ، وهو مالم يكن معهودا بينهما من قبل ، وأصبح صاحبنا حامد يخجل أن يبدو منه بعض الاهتمام بشأن منيرة ، حتى ليتحاشى أن ينطق باسمها ، كأنه يحس فى اختلاج شفتيه عندئذ لهفة مشتاق ، وفى نبرات صوته رنين قبلة مكتومة ، واذا نطق به مرة ففى مثل مناجاة الحالم أو اقرار الخاطىء ولم يكن حامد ليسره ذلك أو ترتاح اليه نفسه ، لقد كان يريد

بتعجيل الخطبة أن يكون أقرب اتصالا بصاحبته فاذا هو أبعد مما كان ، ولقد صرح عن رغبته مرة أو مرتين فكان اعتذار حسين افندى مضحكا حين نسب الى ابنته الخجل والتأبى على ذلك فكأنما تأبى شيئا ترضاه ، لقد كان حامد يريد أن يستوثق من حب صاحبته وثباتها على العهد قبل أن يسافر الى القاهرة ، ولعله كان يريد أن يتزود من حبها بما يقوى عزمه على المضى فى جهاده المدرسى مرحلته الاخيرة . عجيب ! لقد كان الى قريب يستطيع أن يراها وان يبادلها الحديث ولو بابتسامة أو إيماءة على بعد ، ولم يكن غير ذلك الشخص الذى يزورهم كثيرا لأنه صديق ابيها ، حتى إذا ارتبطا بعهد وثيق على أن تكون زوجته ، وان يكون أقرب الناس اليها — حيل بينها وضوعفت الحجب والستور ! تقاليد ؟ لو أنه لم يكن قد رآها من قبل ولم يجلس اليها يتحدثان الساعات ، ويمتد تعارفهما السنين — لكان من حق التقاليد أن تسيطر على عواطفهما وتملى إرادتها ! تقاليد ؟ إن الجهل بعض تقاليد الماضى . . . إن الموتى لا يملكون ان يتصرفوا فى شؤون الأحياء !

ولم تنقطع زياراته ، ولكنها كانت زيارات جافة مملولة ، لقد كان يذهب الى هناك كل يوم ، لا يكاد يرى فى الطريق من يحييه ، لانه لا يرى غير صورة واحدة يبتكرها خياله لتصحبه الى هناك ، وحين يعود ، ما كان أتعسه ! هو آدم ، ولكنه هبط من الجنة قبل أن يذوق الثمرة ، على وجهه علائم الخيبة واليأس والسخط والتبرم بكل شىء ، ولكنه كان يذهب كل يوم . . . !

(٣)

وأحس حامد وخزا أليما بين جنبيه حين علم ان التقاليد المعكوسة لا تجعلها تحتجب عن غيره من شبان الاسرة ، وحين سمع صوتها تتحدث الى واحد منهم فى الغرفة المجاورة ، لم يحرم عليه ما يحل لغيره ؟ ألأنها خطيبته ؟ لقد كان ذلك أجدر ان يرفع بينهما الحجاب ؟ وابتدأت الغيرة تدب فى صدره . أليست تخرج من المنزل قليلا أو كثيراً لمثل ما يخرج له الفتيات من لداتها زائرة أو متفرجة ؟ أليست تسير فى الطريق يتنهب من حسنها كل ذى عينين ، ويستمتع بمرآها كل من أسعده الحظ ان تلتقى بها عيناه ؟ بحسبه مثل متاع هؤلاء : نظرة عابرة ، أو نهلة عارضة ، ولكنهم يسعدون بما يتمناه وهو به أحق ومنه محروم ! !

أى معنى لهذه التقاليد إلا ان يكون من مثل تصرف الأم مع صغارها إذ تمنع عنهم الطعام حرصا على صحتهم ، أو حرصا على الطعام . . ! ولكن الأم لا تمنع أولادها الطعام إلى ان يشفى بهم الجوع على الهلاك ، ولا هى تمنعه لتطعمه قطط الحى وكلابه ، ليس قريبها الذى فتحت له الباب ورفعت الحجاب ووقفت تحدثه جديرا بهذه الوقفة على مرمى نظراتها الفاتنة ، ومن دون خطيبها الذى يتلهف شوقا أليه أبواب موصدة وحجب ضافية ، لماذا لم تمتنع عليه قبل ان يهمس القدر فى أذنه بامنية الزواج منها ؟ ليته رضى ان يبقى صديق الأسرة زمنا آخر فلم يخطبها ولم يجر حديث الزواج على لسانه ، إذن لبقى كما كان — مأمون الجانب — لاتدق أجراس الحذر لمقدمه ، ولا تغلق دونه الابواب ! ولا يعرف التقاليد ولا تعرفه . . .

ولم يطل بحامد مجلسه فى غرفة الاستقبال بعد ، فخرج مغضبا وفى عزمه ألا يعود ! ولكنه عاد بعد أيام . . ومادام بين جنبيه قلبه الواهى فلن يستطيع ان يدبر أمرا أو يحكم خطة .

ومرت أيام ، ومحا جديد الشوق ماضى الغضب ، وجلس مع أبيها يتحدثان فى غرفة على الردهة لا يحتجب من يمر قبالتها ، ودق باب البيت ، و فتحت الخادم ، وقام أبوها فأوصد باب الغرفة ، لقد كانت آتية من زيارة إحدى قريباتها ، فابت التقاليد إلا أن يقوم أبوها فيغلق الباب دونهما حتى تمر ، وماذا يكون لو رآها كما يراها آلاف الناس فى الطريق ؟ بل كما يراها ذلك الشاب الذى جاء يشيعها إلى دارها ؟ وماذا لو كان هو الذى يصحبها ذاهبة لبعض شانها أو عائدة ؟ تقاليد ؟ لتسحق هذه التقاليد قبل ان تسحقه ، إن كان لابد ان يكون أحدهما ضحية . لقد كانت تذهب إلى السينما فاى حرج فى ان يكون بجوارها هناك ، وهى حين تجلس فى مقعدها وترفع النقاب عن وجهها لا تبالى من يجلسون بجوارها ، وفيهم الفتيان وفيهم الكهول . وعادت الغيرة تاكل قلبه ، وتوقد النار فى صدره ، وجاهر بغضبه ، وعادت تمتمة الاعتذار . وأبوا عليها ان تسافر فى موعد خاص حددوه لها من قبل ، لأن صاحبنا كان قد حدد هو أيضا ذلك الموعد نفسه لسفره ، وماذا لو عدوه رجلا ككل الرجال الذين تقدر كل مسافرة ان تراهم يرافقونها فى القطار ؟ وأخلفت موعدها وسافرت وحدها ، وسافر وحده ، حذر ان يراها أو يجلس إليها ، كما يراها ويجلس إليها كل الناس !

وقدر حامد أنه لا يستطيع أن يصبر طويلا على ذلك البعد الغيور ، ورأى أن يتعجل أمره حتى إذا ظفر بزوجه استطاع

بأن يقف من هذه التقاليد موقفا آخر ، ولكن التقاليد أشارت بسبابتها مرة أخرى ووقفت تعترض الطريق : لقد كان هناك بعض أمور لها فى رأى رجال الماضى شأن واعتبار تأبى هذا التعجيل ، وتخضع صاحبنا للامر مرة أخرى ووقف ينتظر والنار تاكله ، والتقاليد تذيبه .

ترى كيف حالها فى إسارها بين هؤلاء الذين يحصون عليها النظرة والابتسامة ، وهى المشبوبة العاطفة الدقيقة الحس ، التى يعلم أنها لا تصبر عن لقائه أكثر مما يصبر ؟ لقد استطاعا مرة أو مرتين أن يتلاقيا على غير رقبة ، وعلى غير موعد أيضا ، فلما نمت عيناها بمكنون قلبها واقتضح السر لديهم ، كان سؤال فيه إعنات ، وجواب فيه حرج ، فلم يشفع لها غير الدموع !

لقد مر بعد ذلك سنتان أو يزيد ، وموقف صاحبنا لم يتغير ، وتابى التقاليد أن تتزحزح من موقفها لتفسح الطريق لزوجين يريدان أن يتمتعا بسعادة العيش قبل فوات الشباب ، وشعر أن فؤاده يهرم . وان ذلك الحب الذى كان يعمر قلبه ابتدأ يتحول إلى ذكرى حزينة يائسة ، وصور الماضى الجميل التى كانت ترف ناضرة أمام عينيه - تذوى وتتعرى من فتنة الحياة ، والمستقبل الباسم الذى صوره لنفسه من أطياف الأمل - تطمس رواءه آلام الحاضر العابس ، ويئس ، وقنع من غرامه الأول والأخير بالذكرى يستعيدها ليعيش فيها لحظات . لقد كان يكره التقاليد لأنها صورة الماضى البالية ، ولكنه عاد لا يؤمن إلا بالماضى ، ولا يرضى أن يعيش إلا فيه . . . !

(٤)

أراد أن يروض نفسه على السلوان ، وأن يدفن ذلك الماضى فى أعماق النسيان ، ولكن نارا بين ضلوعه كانت تشعل هذه الذكرى كلما هم أن يطفئها ، وقلبا بين جنبيه كان لا يفتر ينبض ، وريشة فى الخيال تمحو صورا وتبعث صورا .

أيقن أن سلطان التقاليد أقوى من سلطانه ، فكيف يحتال على هذه التقاليد حتى تستلس له قيادها ، ويملى فيها إرادته ؟ لو كان يدرى متى تاذن له أن يختصر خطيبته إليه لاستطاع أن يحمل نفسه على الصبر ، ولكنها تؤجل دائما إلى الغد ، والغد لا يتحقق .

لقد رأى أخيها أمس ؟ نهض صدرها ، وتحير فى خديها ماء الشباب ؛ لقد أصبحت هى أيضا عروسا ، أصبحت تنظر نظرتها . . . ولو عاش فيها وراء هاتين العينين لظهر من خلفهما فى مرآة الأمل - الروح الذى أبدعت تخيله وأجادت رسمه . .

وخطر له خاطر : لو أن شابا تقدم غدا الى حسين افندى يطلب يد (سعاد) ورأى فيه ما يحمله على قبوله ، فماذا يكون من أمره ؟ ستأبى التقاليد ولا شك - أن يزوجها قبل زفاف أختها ، وأنه لحريص على التقاليد ، وسيابى عليه أيضا بر الوالد أن يفلت منه هذا الخاطب . وجه التدبير إذن أن يعمل على تعجيل أمر حامد ومنيرة ليخلى الطريق لسعاد ، فينتهى من تقاليد ليبدأ تقاليد غيرها . . .

ياله من أمل ! إذن لاستطاع حامد أن يتغلب على التقاليد بالتقاليد نفسها ، بل ان يملى عليها إرادته ويهزأ بها كما أملت عليه إرادتها من قبل هازئة جبارة . !

***

ومرت أيام ، وتلتها أيام . . . وفجاة وقعت المعجزة وكان ، وقعها سعيدا ، لقد تقدم الخاطب الوجيه يطلب يد سعاد .

كيف تقدم . . ؟ من أين تقدم . . ؟ من يدرى . . ؟

وابتدأت التقاليد دورتها فى فلك جديد ، ترمى إلى هدف آخر ، أما حامد افندى فقد هدأت نفسه ، وتفيأ ظل الطمأنينة . لقد ظفر بأمنية الحياة . . . !

ولكن . . هل تزوجت سعاد بهذا الخاطب . . ؟

محمد سعيد العريان

العلوم

مجلة علمية ، أدبية ، اقتصادية تصدر مؤقتا مرة فى الشهر

يسرنا أن نرحب بصحيفة راقية جديدة . يحررها نخبة من رجال العلم الأفاضل ويحاولون فيها أن يقربوا المسائل العلمية الدقيقة الى اذهان القراء غير الأخصائيين .

ذلك هو الغرض الذى ترمى اليه (العلوم) التى صدر منها العدد الأول فى الشهر الماضى ، ولا يتسع المقام هنا للاشارة الى ماتضمنه من بحوث سهلة قيمة ، ولكن اذا كان لنا أن نسترشد بهذا العدد للحكم على ماسيأتى بعده ، فاننا لانشك فى أن حضرات المحررين الأفاضل قد وفقوا الى تحقيق غرضهم والى خدمة القارىء المتعطش للثقافة العلمية دون أن يكون لديه الوقت ولا الوسائل التى تمكنه من دراستها دراسة عميقة .

ونحن نرجو أن تلقى هذه الصحيفة النافعة من القراء ماتستحقه من التشجيع